المعركة الحاسمة

•

وكان من الطبيعي – لولا اصرار المصلحة الانكليزية على تنفيذ المعاهدة – أن يعود الأمن إلى نصابه بعد وعد الوصي السامي . ولكن تصريحات كانت تصدر في لندن مرة عن وفدنا المفاوض ومرة عن وزير خارجية بريطانيا – كما قلنا – كانت تدعو الى الشك والريبة ، بل كانت تعالن الرأي العام بشيء من الاستخفاف مستوحى من اساليب دزرائيلي ومكيافيلي العتيقة . وذلك ما حفز الوعي للاستعداد وصهره ، ووطنه على لقاء المكاره مهما كانت .

لم تخمد النار التي اضطرمت صباح ١٦ كانون الثاني يوم نشر المعاهدة . كانت جذوتها تتوهج وتتعرض لنسيم الوعي الذي أصبح يهب رخاء في هذا البلد فينعش النفوس بعد أن ظننا أن النكسة الوطنية بلغت مبلغ اليأس في هذا الوطن العزيز ، وان السموم الاستعمارية نفذت منه الى مقتل – لا قدر الله.

ولم تخل هذه الفترة – بين ٢١ كانون الثاني وبين ٢٥ منه - من مظاهر الاستعداد للوثبة الكبرى ، فقد كانت ميادين الطلاب تحتشد، وكان المخلصون يتابعون الحركة بيقظة .

وفي صباح الاثنين ٢٥ كانون الثاني عاد الوفد من لندن . وكان منتظراً أن تعلن الوزارة استقالتها نزولا على الرغبة الاجماعية في اسقاطها، وتمشياً مع روح البيان الملكي ، غير أن الذي حـــدث هو تمسك الوزارة بالحكم .

وعقد قصر الرحاب العامر صباح هذا اليوم مؤتمراً استمر الى مسائه . وكان المؤتمر قاصراً على الوفد المفاوض ووزارته .

وكان الوفد يحمل صلاحيات (لندنية !...) تعهد لقاءها للانكليز بتنفيذ هذه المعاهدة بالقوة والاكراه ، معتمداً من الناحية القانونية على عضد النواب له .

وهكذا بارح رئيس الوفد المفاوض المؤتمر المذكور ليعلن بيانه الاول على الشعب . فقد قرر هذا المؤتمر اتباع سياسة (الجلد) في سبيل البقاء في الحكم وتنفيذ معاهدة « بورتسموث » ، وأعد لذلك المحاكم العرفية وغلق المدارس ، واستعمال اقسى وسائل القوة بحجة ارجاع هيبة الحكومة .

وفي ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء سمع المذيع يرسل من حنجرة واسعة صوتاً عريضاً يضرب الآذان ضرباً وهو ينبهها الى الاستماع لبيان رئيس الوزارة . ثم يتلو البيان بالطريقة الاملائية في حماسة ظاهرة .

ويتلخص البيان بما يلي – والكلام لرئيس الوزارة - « عندما

كلفت بالوزارة أدخلت في منهجي تعديل المعاهدة العراقيـــة - الانكليزية، وباشرت فعلاً بذلك في شهر مايس. واستمرت المفاوضات الى كانون الاول سنة ١٩٤٧ حيث توصلنا الى وضع أسس صالحة. وبعد سفرنا الى لندن عقدنا المعاهدة الجديدة. وستطلع الامة العراقية على شرح بنودها ومراميها بالتفصيل. وعندئذ سيكون للامة الحكم الفاصل والبت فيها سلباً او ايجاباً. وهذا حق طبيعي للامة كما تفضل سيدي صاحب السمو في بيان التشريفات.

فارجو من اخواني أبناء الشعب العراقي الكريم أن يخلدوا إلى السكينة ويتركوا كل ما من شأنه الاخلال بالأمن والنظام ومخالفة القوانين الواجبة الرعاية».

وقد فهم الجمهور هذا البيان على أنه نحد، وتهـــديد، ومضي بتنفيذ المعاهدة. لأنه لم يشتمل على غير أمرين:

١ – تفسير بيان الامير في صالح الوزارة.

٢ – الاعتماد على أكثرية مجلس النواب في تصديق المعاهدة.

لذلك ثارت الجماهير من فورها دون انتظـــار الى الصباح، وحدثت في الليل اصطدامات مؤسفة في الكرخ سالت فيها الدماء.

*

حتى أضواء الفجر كانت شاحبة صباح الثلاثاء ٢٦ كانون الثاني. وقد استيقظت شوارع بغداد على غير عادتها مبكرة جداً فاذا هي ميادين كميادين سنة العشرين... طلاب فقط ؟.. طالبات فقط ؟.. لا إنه الشعب بكامله يموج كالبحر في إرعاده وإزباده، وكالتيار في قوته واندفاعه.

ولما تعالى النهار كانت سيارات الشرطة تحترق بانفاس الجماهير، وكانت الاستحكامات تنتصب في كل مكان من الكرخ والرصافة والجسر بينهما أيضاً .... هذا الميدان الذي كان يقتل بعيون المها في السلم ... أصبح يقتل بالرصاص والنار في هذه المعركة. ترسل الجماهير صفوفاً صفوفاً ، وتدفعها الى الموت موجة موجة فتلقاه مشتاقة وتضطجع منه على فراش (الشهادة) الوثير .

ثم اشتد الكرب حتى خشي الذين بايديهم هذا السوط العنيف أن تعصى أوامرهم وتخالف الشرطة ، حتى الشرطة ، عن ارادتهم .

وفي غمرة هذه المحنة استقال رئيس مجلس النواب معالي القصاب والجبهة الدستورية التي بلغ عددها (٢١) نائباً .

وبدا للوزارة ان استمرار المعركة على هذا النحو أمر يؤول الى خسرانها .

فرأت أو رأى الاستعمار الاستنجاد بقاعدة (فرق تسد) ليستطيع بسحر هذه القاعدة أن يشق الصفوف ويستولي على الموقف .

فانطلق في حواشي المعركة همس يعلو وهو خائف يدس هنا وهناك : انها معركة طائفية ..!

وكان جوابها ان ضحك الناس في غمرة المحنة وسخروا ومشت الجبهة على بركة الله .

ولما عادت هذه الهمسات مخذولة نشطت القيادة الحكومية للعنف من جديد. واذيع في يومنا المخيف هذا — الثلاثاء ٤٨/١/٢٦ — ان بيانا سيلقى من الاذاعة ، ولم تكن الاعاليل تجد الى نفوس

الخبراء سبيلا في تعلة مسلية ، فالبيان الموعود لرئيس الوزراء ولا ينتظر منه غير الضغط على فكيه في حث البنادق على الاطلاق .

ولما كان الظهر انطلق صوت المذيع يعلن البيان ، ويتلخص هذا البيان بوعيد صريح « فعلى اولياء الطلاب أن يحجروا على اطفالهم (..!؟) وعلى الناس ان يخلدوا الى السكينة ، فان الحكومة جادة في الضرب على هذه الحركة » .

وكانت كل خطوة للحكومة على هذا الغرار تضاعف الشعور بالنقمة وتبعث على الاستمرار في الجهاد . ولو كانت الحكومة على شيء من استقرار الرأي لكانت بدلت هذا الاسلوب المخيف في نتائجه اكثر من اخافته حال المعركة ، إذ أيقظت في نفوس الجميع بالاضافة الى الشعور الوطني الشامل غريزة الدفاع عن الذات ، وكل مشتغل في هذه الجبهة المباركة اصبح لا يأمن على نفسه حين تهدأ الحركة من مطاردة الحكومة له ، لذلك كانت هذه البيانات الفجة زيتاً يلقى على النار .

ولم تكن العاصمة وحدها مقراً لهذه الحركة الكريمة ، فقد ثارت النجف وكربلاء والحلة والديوانية والبصرة والرميثة والموصل والسليمانية وغيرها من الالوية والاقضية الواعية المتضامنة مع بغداد تضامناً عظيما .

*

وقد هال الزعماء والمخلصين من أبناء هذه الامة وقادتها ان تستمر هذه الكارثة دون وسيط ، وعظم عليهم ان لا يؤدي اجماع الامة إلى حل سريع يماشي الرغبة العامة ، فلجأوا الى سمو الوصي يكلمونه في الموقف الحاضر .

وانحصر النشاط السياسي يوم الثلاثاء في قصر الرحاب . لان بغداد كانت ساحة لنشاط حربي فلا موضع فيها لشيء من السياسة . وهناك على مقربة من الامير عبـــد الاله ، تلاقى صفا القيادتين : الشعبية الوطنيـة ، والحكومة الانكليزية . وكانت الاولى برئاسة سماحة الصدر والثانية برئاسة فخامـة السعيد . وكان سماحة الصدر يرى وجوب الاسراع باقالة الوزارة ويؤكد ان كل لحظـــة تسبق غيرها الى الاقالة تعتبر ربحاً عظيما لمصلحة الوطن . اما نوري ، فكان من رأيه استمرار الحكومة في الحكم وان تطلق لها الصلاحية خمسة ايام تجعل فيها النهار مظهراً للافتتان باظهار السطوة وشدة البأس ! والليل ستاراً للاعتقالات والفتك .

وكادت خطة نوري السعيد ان تستولي على الموقف اذ كتبت صورتان لارادتين ملكيتين احداهما تعلن الاحكام العرفية ، والثانية تمنع التجول ، وحملت هاتان الصورتان الى قصر الرحاب للتوقيع ، كما كانت ثمة محاولة ترمي الى اسناد حفظ الامن للجيش .

ولم يكتف بهذا بل ارسل نفراً منهم السيد ضياء جعفر وزير المواصلات والاشغال يبثون سموم التفرقة ويوزعون المناشير الضارة مشفوعة بالبـــذل السخي ليصدعوا الجبهـــة المتماسكة ، ويمهدوا لاستيلاء السلطة .

ولكن الخطر الماثل هذا تجسم لسماحة الصدر ومن كان يقف الى جانبه من رجال العراق ، فانقضوا على هذه الخطة حتى نقضوها بما اوضحه سماحة الصدر من العواقب الوخيمة التي تنتظر البلاد وراء هذا التدبير اللئيم ، ولم يتغلب سماحته على الموقف بسهولة فقـــد

عكف في قصر الرحاب من الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء حتى الثامنة مساء على انضاج ثمرة النصر باسقاط الوزارة ، ولو كشف الغطاء عن المعركة الدائرة في قصر الرحاب يومئذ بين الحرية والعنف ، وبين الاستبداد والديمقراطية ، وبين الوطنيـــة والمصالح الاجنبية — لو كشف الغطاء عن هذه المعركة ، لظهرت معركة اكثر هولاً مما كان يدور في الشوارع من التطاحن ، وقد كان المصير متوقفاً على نجاح هذه المعركة دون معركة الشوارع لانها هي الاساس في واقع الامر وحقيقته . ولو قدر لنوري ان يتغلب — لا سمح الله — لحلت الفاجعـــة التي كنا نخشاها ، الفاجعة بغلبة السيف المصلت .

نثبت هذا لنضع بطولة السيد محمد الصدر واصحابه في كفة وبطولة مجاهدي المعركة في كفة ، وهكذا يجب ان يخلد الموقف في التاريخ المتجرد ، والبحث الحر ، والنظرة الواقعية ، واننا لا نؤخذ بالصيحات فالمواقف الحاسمة — ولا سيما موقف كهذا — لا تتقرر اذا لم تستند الى (جهاد) سياسي .

وقدّر انت مبلغ العناء في وقوف السيد محمد الصدر امام تيار السيد نوري السعيد ومن ورائه مصالح بريطانيا العظمى .

ولا يدلك شيء على مبلغ هذا العناء كنصر الحركة الشعبية في اقناع سيد البلاد بوجوب تنحية الوزارة القائمة ، اذ اقبل سموه بنفسه على شعبه الظامىء الى نهلة من بياناته ، وكانت الجماهير محتشدة وراء اجهزة الراديو في كل مكان نحو الساعة الثامنة ليلة الاربعاء حين القى سموه نبأ الاستقالة فقال :

« شعبيَ العزيز !

من المؤلم حقـــاً ان تحدث بين اخواني ابناء الشعب الواحـد حوادث مؤسفة ادت الى إراقة الدماء ، ولا اشك بان كل واحد منكم يشاركني ألمي هذا. والان وقد استقالت الوزارة القائمة وقررنا قبول استقالتها فاني اطلب من جميـع افراد الشعب على اختلاف طبقاته التعاون معي بالخلود الى السكينة والهدوء وتجنب كل ما هو مؤد الى الاخلال بالامن والنظام والقانون للوصول الى ما فيه خير البلاد والنتائج الحسنة التي يتوخاها الجميع ، كما ادعـــو جميعكم الى الانصراف لاعمالكم الاعتيادية . ومن الله التوفيق . »

وهزت بغداد من هذا البيان فرحة كافراح الاعياد ، وكانت استقالة الوزارة دية لتلك الدماء البريئة الطاهرة . أرأيت المثقـل المجهود باجسم الاعباء يلقي عن كاهله العبء الجسام ؟ بمثل هـــذا أحس الناس جميعاً وهم يتنفسون الصعـــداء ، في تلك الليلة الربيعية .

حكومة الثورة

ولم يكن تأليف الوزارة الجديدة أقل أهمية في نظر العراق ونظر الواقع ايضاً من سقوط السيد صالح جبر ، فأهمية وشخص الرئيس الجديد متصلة كل الاتصال بالمعركة التي ما تزال طرية الجرح ، ذلك لان « الشخص » عنوان لأحد الرأيين اللذين اصطرعا بمثـل العنف والشدة اللذين رأيناهما .

فاذ جاء رجل من طبقة صالح جبر كان استمراراً لوزارة

صالح وكان معنى ذلك انتصار المصلحة الانكليزية في نهاية الامر ، وبقاء ما كان على ما كان .

وعلى هذا فلن يتم النصر الشعبي إلا اذا الف الوزارة «شخص» شعبي . وهذا ما حول الجهد الذي كان منصرفاً لازاحة السيد صالح جبر ، إلى اسناد الوزارة الى السيد محمد الصدر .

وبات العراق في ليلة بعيدة النجم ، طويلة كظل الرمح — كما يقول العرب القدماء .

وما رأيت اجماعاً كالاجماع على اللجوء الى « الصدر » في تأليف الوزارة . لقد دل الحادث الجبار على ان « الرجل » زعيم .. رجل الساعة بحق .

وما أدري لو لم يكن « الصدر » موجوداً كيف تحل الأزمة ، فلا تسألني هذا السؤال ، فالجواب عليه صعب المنال .

كان السيد محمد الصدر منذ صباح الاربعاء بعد صباح الثلاثاء في قصر الرحاب ، ولم يتردد الامير بتكليفه فانه أعلم الناس بما له من زعامة لا تشبهها زعامة أخرى في السيطرة على الفترات الصعبة .

وكان « الصدر » قبل التكليف مبدئياً ولكن بعض شروطه في القبول كانت تتسع للتردد في اسناد الوزارة اليه فكلف بعده السيد أرشد العمري ، ولكن الخبر لم يكد يتصل بالهيئات السياسية والشعبية حتى شدوا أوساطهم من جديد ، لقد فهموا من ذلك أن صالح جبر لن يعود الى الحكم باسم آخر ، ولو تم الأمر ونجح بتشكيلها أرشد العمري لكانت فتنة من طراز لا يعرفه تاريخ العراق المليء بأنواع القلاقل .

ومع ذلك فقد جهـــد السيد أرشد العمري وفاوض أشخاصاً شعبيين منهم معالي السيد سعد صالح ومعالي كامل الجادرجي ومعالي الفارسي وناساً كثيرين، ولكنه آب بالفشل ولم يستطع اقناع أحـد غير ثلاثة نترك اسماءهم وهم في كل حـــال ممن لا يطمئن اليهم الرأي العام .

وطافت الوزارة أربعاً وعشرين ساعة و « الصدر » ممتنع عليها في داره على شاطىء دجلة الغربي ، والوفود من الشبان والشيوخ من مختلف الطبقات يلحون عليه أن يقبلها ، وقـــد أعلنت الاحزاب تأييدها لسماحته وإباء التعاون مع غيره . حتى اذا انتصفت ليـــلة الخميس ٤٨/١/٢٩ لم يجد بداً من قبولها إزاء هذا الالحاح الشعبي ، وإزاء تكليف سيد البلاد ، وإزاء الواجب الذي توجه اليه بعـــد تعينه دون غيره لادارة الدفة وتسلم الحكم .

وانطلقت البشرى بعد منتصف الليل تنساب في أسلاك التلفون تعلن قبوله الحكم ، ولم يُعهد قبل الصدر رجل يهدى اليه الحكم فـلا يقبله إلا كارهاً مكرهاً .

اما اعضاء وزارته فقد اختارهم على النحو التالي :

— فخامة جميل المدفعي الداخلية . [1]

---

(١) لم يستطع فخـامته المضي بتحمل المسؤولية فاستقال بعد مدة قليلة من استيزاره كما استقال السيد عمر نظمي تنحياً عن العدلية من أجل الشكوك التي حامت حوله قبيل الانتخابات اذ طعن بانه متحيز فيها ولانه كان المعارض الوحيد في مجلس الوزراء لحل المجلس . واجري التعديل الوزاري فوزر للداخلية الفارسي وللعدلية الراوي وللشئون الحيدري وبعد وفاة الباجه جي عدلت الوزارة مرة اخرى فنقل الفارسي الى الخارجية واسندت الداخليـــة بالوكالة للسيد مصطفى العمري .

– فخامة حمدي الباجه جي للخارجية .
– » أرشد العمري للدفاع .
– معالي محمد رضا الشبيبي للمعارف .
– » صادق البصام للمالية .
– » نجيب الراوي للشئون الاجتماعية .
– » جلال بابان للمواصلات والاشغال .
– » عمر نظمي للعدلية .
– » مصطفى العمري للاقتصاد .
– » مهدي كبه للتموين .

واصحاب المعالي نصرة الفارسي وداود الحيدري ومحمد الحبيب امير ربيعة وزراء بلا وزارة .

وفي بعض اعضاء الوزارة وقفات للنظر كثيرة ، ولكن الرأي العام وسائر الاوساط رأت الضمانة المطلوبة في شخص الرئيس .

ولا جدال في ان وزارة الصـــدر انبثقت من ارادة الشعب فكانت بهذا الوزارة البكر في تاريخ العراق الحديث .

ولا جدال في ان رئيسها في نظر العراقيـــين زعيم وطني قبل كونه حاكما ، وبذلك استحق ان يثق به الجميع في هذا الظرف الجريح ليقودهم الى شاطىء السلامة وحرم الاستقلال ، وله في ذلك تاريخ حفظوه منذ سنه العشرين .

وكان المعروف ان من شروطه لتولي الحـكم رفض معاهدة بورتسموث وحل مجلس آذار عام ١٩٤٧ وتأجيل تعديل المفاوضة وتحرير الرأي والصحافة . وان يكون له اختيار الوقت المناسب

لاستقالته من الحكم.

وجدير بالذكر انه لم يشغل بالحكم على كثرة مشاغله فيه عن مشاركة النـــاس في مشاعرهم اذ طاف بصرعى الحركة وواسى جرحاها، ووزع أوقات عمله في ديوان الرئاسة فجعل للمقابلة العامة وقتاً خاصاً يومياً يسمع فيه الشكاوى بنفسه، هـــذا مضافاً الى ما يقرأه من العرائض التي لم تكن تقرأ من قبل. ومن أطرف ما علمت ان راتبه الشهري ينفقه وينفق اضعافه من خالص ماله على فقراء مراجعيه في الضائقة الاقتصادية هذه، ولعل المئات ممن يستقبلهم يومياً لم يكونوا يحلمون في غير عهده ان يروا مجلس الوزراء الا من وراء حجـــاب.

إنها وزارة اشعرت الشعب انها منه واليه.

عن ذلك أسفرت المعركة الحاسمة، وكانت استحرت من أجل الوصول الى هذه الغاية.